﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ ما أنْزَلَ اللهُ في الكِتابِ، والتَّحذيرُ مِنْ كِتْمانِهِ وتَحْريفِهِ.

العُقوبَةُ الشَّنيعَةُ لِلمُحَرِّفينَ لِأحْكامِ اللهِ، في الدُّنْيا والآخِرَةِ

"وَنَاسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الآيَةِ ما قَبْلَها، لِأنَّهُ تعالى ذَكَرَ في الآية قَبْلَها إباحَةَ الطَّيِّباتِ، ثُمَّ فَصَّلَ أشْياءَ مِنَ المُحَرَّماتِ، فَناسَبَ أنْ يَذْكُرَ جَزاءَ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ دِينِ اللَّهِ، ومِمّا أنْزَلَهُ على أنْبِيائِهِ، فَكانَ ذَلِكَ تَحْذيرًا أنْ يَقَعَ المؤْمِنُونَ فيما وقَعَ فِيهِ أهْلُ الكِتابِ، مِن كَتْمِ ما أنزل اللَّهُ عَلَيْهِمْ واشْتِرائِهِمْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

البطْنُ خلافُ الظَّهْرِ، ويُعبّرُ بِهِ عنْ داخلِ الشّيْءِ

1) ﴿بُطُونِهِمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بطن)، وأصلُ المادّةِ: إنْسِيُّ الشَّيْءِ، والمُقْبِلُ مِنْهُ، فَالبَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ[2]، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنْ دَاخِلِ الشَّيْءِ، كَمَا يُعَبَّرُ بِالظَّاهِرِ عَنْ خَارِجِهِ، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الجِهَةِ السُّفْلَى، كَمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ العُلْيَا"[3]، و"(بُطُونٌ): جَمْعُ بَطْنٍ، وهُوَ اسْمٌ جَامِدٌ لِجَوْفِ كُلِّ شَيْءٍ، وزْنُهُ: فَعْلٌ"[4]، وقيل: "البَطْنُ في كلّ شَيْءٍ: خِلافُ الظَّهْرِ، كَبَطْنِ الأَرْضِ وظَهْرِها، وكالباطِنِ والظّاهِرِ، وكالبِطانَةِ والظِّهارَةِ، يَعْني: باطِنَ الثَّوبِ وظاهِرَهُ، قال اللهُ ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: 54]"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بطن).
(4) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/347.
(5) الخليل، العين: 7/440.

2) ﴿أَلِيمٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (ألم)، وأصل المادّة يدلُّ على الوَجَعِ[1]، والأليمُ: المُوجِعُ[2]، "و(أَلِيمٌ): اسمُ فاعِلٍ بِمَعنى مُؤْلِم"[3]، قال ابنُ فارس: "وَالْفِعْلُ مِنَ الْأَلَمِ: أَلِمَ، وهُوَ أَلِمٌ، والْمُجَاوِزُ: أليمٌ، فَهُوَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، وكَذَلِكَ وجِيعٌ بِمَعْنَى مُوجِعٍ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يُقَالُ: أَلِمْتَ نَفْسَكَ، كَمَا تَقُولُ سَفِهْتَ نَفْسَكَ، والْعَرَبُ تَقُولُ: "الْحُرُّ يُعْطِي والْعَبْدُ يَأْلَمُ قَلْبُهُ"[4].

ومعنى قَولِه تَعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٥﴾: ولهم عَذابٌ مُؤْلِمٌ؛ فصُرِفَ عَنْ: مُؤلِمٍ، إلى: أَليمٍ، قال عمرُو بن معْدي كَربَ:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ *** يُؤَرِّقُنِي، وأَصْحَابِي هُجُوعُ

معناه: الدّاعي المُسْمِعُ، فصرف عن: مُفعِل، إلى: فَعِيل، وقال ذو الرّمّة:

وَنَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَرْدَلاتٍ *** يَصُكُّ وُجُوهَهَا وهَجٌ أَلِيمُ

معناه: وهجٌ مُؤلِمٌ؛ فصُرِف عن: مُفعِل، إلى: فَعيل[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إِيجازٌ بَديعٌ في تَوْصيفِ التَّحريفِ، لِلوَحْيِ المُنيفِ

إِنَّ الذينَ يُخْفُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ في كُتُبِه مِنْ صِفة النَّبِيِّ ﷺ، وغَيْر ذَلِكَ مِنَ الحَقِّ، ويَحْرِصُونَ على أَخْذِ القَليلِ مِنْ عَرَضِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا مُقَابِلَ هَذا الإِخْفَاءِ، كَرِئَاسَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، هَؤُلَاءِ مَا يَأْكُلُونَ إِلّا مَا يكون سَبَبًا لِتَعْذِيبِهِمْ بِالنَّارِ، ولَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامة لِغَضَبِه وسُخْطِه عَلَيْهِمْ، ولَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ وكُفْرِهِمْ، ولَهُمْ عَذابٌ مُوجِعٌ[6]، "قال ابْنُ عَبَّاس: نَزَلَتْ هَذِهِ الآية في رُؤَسَاءِ اليَهُودِ؛ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، وكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، ومَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وأَبِي يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبَ، كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الهَدَايَا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ألم).
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/241.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).
(5) الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/80.
(6) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، خَافُوا انْقِطَاعَ تِلْكَ المَنَافِعِ، فَكَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَمْرَ شَرَائِعِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ"[1]، و"العِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَالآيَةُ وإِنْ نَزَلَتْ في اليَهُودِ، لَكِنَّهَا عَامَّةٌ في حَقِّ كُلِّ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ بَابِ الدِّينِ يَجِبُ إِظْهَارُهُ"[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تأكيدُ الخبرِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

جاء الخبر مؤكّدًا ب(إنَّ) والجملة الاسميّة؛ لِمُجرّد تَقويَةِ الخَبَرِ في نَفسِهِ، فَهُمُ اسْتَسْهلوا كِتْمَانَ الحَقِّ، فاتَّخَذوهُ مَبيعًا يُبَاع ويُسْتبْدل بِثَمنٍ، فَجَاءَ التَّأْكيدُ في الخَبَرِ لِلتَّنْبيهِ عَلى شَنَاعَةِ مَا فَعلُوهُ.

تَأكِيدُ شَنَاعَةِ فِعْلِهِم مِن الكِتْمِ، واسْتبْدال الحَقّ بِثَمنٍ قليلٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بالِاسْمِ المَوْصولِ، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ عن الكاتمين وهم "عُلَمَاءُ اليَهُودِ؛ لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ في التَّوْرَاةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ ونَعْتِه، ووَقْتِ نَبُوَّتِه"[3] بالاسم الموصولِ لا بالاسمِ الظَّاهرِ؛ "لِما في الصِّلَةِ مِنَ الإيماءِ إِلَى سَبَبِ الخَبَرِ وعِلَّتِه"[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

اخْتَلَفَ المفسِّرون في أَيِّ شَيْءٍ كان الكِتمان؟ "فَقِيلَ: كانُوا يَكْتُمُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَهُ والبِشارَةَ بِهِ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبّاسٍ، وقَتادَةَ، والسُّدِّيِّ، والأَصَمِّ، وأَبِي مُسْلِم، وقال الحَسَنُ: كَتَمُوا الأَحْكامَ"[5]، أو يَكْتُمُونَ مَعانيَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ؛ فيَذْكُرُونَ لَها تَأْوِيلاتٍ باطِلَةً، ويَصْرِفُونَها عَنْ مَحامِلِها الصَّحِيحَةِ الدّالَّةِ على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ[6] ﷺ،

لِمَا تَعَدَّدَ المكْتُومُ؛ أُبْهِمَ ذِكْرُهُ لِيَشْمَلَ كُلَّ ما كُتِمَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/204.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/122.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/204.
(6) المصدر السّابق: 5/204.

والتَّعْبيرُ عَنْ ذَلِكَ بِالاسْمِ المَوْصُولِ المبْهَمِ (ما)، يَدُلُّ على شُمُولِ كُلِّ ما كَتَمُوهُ مِنْ صِفاتِ النَّبِيِّ ﷺ، والأَحْكامِ وغَيْرِها.

التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ أَمانَةٌ، لا يَجوزُ أَنْ تلعبَ بها أَهْواءُ البَشَرِ

اسْتَعْمَلَ الفِعْلَ المضارِعَ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الكَتْمِ والشِّراءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ الفِعْلَ المضارِعَ يُناسِبُ الأَحْداثَ الَّتِي فِيها اسْتِمْرارِيَّةٌ وتَجَدُّدٌ، وكَتْمُ الحَقِّ لا يَحْدُثُ مَرَّةً ويَنْقَطِعُ؛ لِأَنَّ الكاتِمَ لا يَتَحَقَّقُ كَتْمُهُ، ما لَمْ يَكُنْ مُسْتَمِرًّا بِهَذا الكَتْمِ، فَهُوَ دائِمٌ بِكَتْمِهِ، وبِالانْتِفاعِ بِهَذا الكَتْمِ المُعَبَّرِ عَنْهُ بِالشِّراءِ.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِـ(مِنْ) البَيانِيَّة، وموقعُها الإعرابيّ:

تَبْشيعُ التزامِ كِتْمانِ ما أَنْزَلَه الرَّحْمَنُ

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلبَيانِ[1]، بِمعْنَى أَنَّ المكْتُومَ هُوَ الّذي أَنْزَلَهُ اللّه مِنْ تِلْكَ الكُتُبِ، وهَذا فِيهِ تشنيعٌ عَليهِم؛ فَهُمْ يَكتُمون الكتابَ الّذِي هُو الوحْيُ المنْزَلُ مِن اللّه تَعالَى، وممَّا يزيدُ من التَّشنيعِ عليهم أَنَّ المطلوبَ منهم هو الإظهارُ لا الكِتمانُ، وهم يصنعون عكسَ المطلوبِ، إذِ المكْتومُ هو مِن جِنْسِ قَوْلِ اللّه تَعالَى، وليْس أيَّ كلامٍ!

فقولُه: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ "حالٌ مِنَ العائِدِ المَحْذُوفِ، أَيْ: أَنْزَلَهُ اللّه حالَ كَوْنِهِ مِنَ الكِتابِ، وهُوَ التَّوْراةُ المشْتَمِلُ على نَعْتِ مُحَمَّدٍ عليه السلام"[2]، وفائِدةُ ذَلِك أَنَّه أَراد تَبْيينَ أَنَّ المُنْزَلَ هُوَ مِن الوحْيِ الّذِي يُدوَّنُ في الكتابِ؛ وليْس مِنْ وحْيٍ آخرَ غَيْرِ مَكْتُوبٍ؛ لِلدَّلالَةِ عَلى عَظيمِ جُرْمِهِمْ؛ حَيْث كَتَمُوا ما هُو ثابتٌ لَديهِمْ في الكِتابِ.

سرُّ الوَصْلِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ بالواوِ دونَ الفاءِ:

عطفتِ الآيةُ قولَه تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على قولِه: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالواوِ لا بالفاءِ؛ وذلك "لأَنَّ المُرادَ الذَّمُّ على كُلِّ وصْفٍ مِنْهُما لا على واحِدٍ فَقَطْ"[3].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(2) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(3) تفسير ابن عرفة: 2/509.

بَلاغَةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في قَولِه: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

أُطْلِقَ الاشْتِراءُ على الاسْتِبدالِ مُشابَهَةً لِلْعِوَضِ المادِّيِّ، مُقابِلَ الكِتْمانِ

المرادُ بالاشْتراءِ هُنا الاسْتِبْدالُ[1]؛ فإنَّهُمْ "لَمّا تَعَوَّضُوا عَنِ الكَتْمِ شَيْئًا مِنْ سُحْتِ الدُّنْيا، أَشْبَهَ ذَلِكَ البَيْعَ والشِّراءَ، لِانْطِوائِهِما على عِوَضٍ ومُعَوَّضٍ عَنْهُ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اشْتِراءٌ"[2]، فـ"كان غَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الكِتْمانِ أَخْذَ الأَمْوالِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَهَذا هُوَ المرادُ مِن اشْتِرائِهِمْ بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا"[3]؛ "وَذلك أَنَّهُم لَو أظْهروه لَوَجَدَهُ سِفْلَتُهُم مُطابِقًا لِصفاتِهِ المشاهَدَةِ خارِجًا، فيُؤْمِنُون بِه، فَيفُوتُ على الرُّؤساءِ ما يأْتِيهِم مِنْه"[4]، وهذا استعارةٌ تصريحيَّةٌ، صرَّح بالاشتراءِ وهو المُشبَّهُ بِهِ، والمرادُ الاستبدال؛ لطلبِهم العِوض، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ حرصِ الكاتمين على المالِ المكتسبِ، والجاهِ المجتَلَب.

بيانُ مرجعِ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾:

يحتملُ عَوْدُ الضَّمِير في قوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ "على (ما) الموصولةِ، وأَنْ يعودَ على الكَتْمِ المفهوم من قولِه: (يَكْتُمُونَ)، وأَنْ يعودَ على الكتابِ، أظْهرُها أوَّلُها، ويكونُ ذلك على حَذْفِ مضافٍ، أي: يشترون بكَتْمِ ما أَنْزل"[5].

وَجْهُ وصفِ الثَّمنِ بالقليلِ في قوله: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

اعتبارُ القلَّةِ والكثرةِ شرعيٌّ ومآليٌّ

وصفَ اللهُ تعالى الثَّمنَ بالقليلِ في قولِه تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ "إمّا لِأَنَّهُ في نَفْسِهِ قَلِيلٌ، وإمّا لِأَنَّهُ بِالإضافَةِ إلى ما فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ العَظِيمِ قَلِيلٌ"[6]، أو "سَمّاهُ قَلِيلًا لانْقِطاعِ مُدَّتِهِ وسُوءُ عاقِبَتِهِ"[7]، وهذه الأوجه الثَّلاثةُ صحيحةٌ متَّجِهةٌ، فالثَّمنُ قليلٌ في ذاتِه مهما

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/120.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/241، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/120.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(7) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/136.

بلغ في مقابلِ الوحي، وهو قليلٌ باعتبار الضَّرر اللَّاحق، وهو قليلٌ لأنَّ زمانَه قليلٌ.

دلالة العطْفُ بَيْن الأخْبارِ في السِّيَاقِ الواحدِ:

تَـعـدُّدُ الأخبـارِ عن مبتدأٍ واحدٍ دلـيـلٌ عـظـيـمِ الفعلِ

أخبرَ الحقُّ عن اسم (إنَّ) في قولِه عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بأربعةِ أخبارٍ؛ وهِيَ الجُمَلُ الأربعةُ: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، "وَتَرَتَّبَ على الكِتْمانِ واشْتِراءِ الثَّمَنِ القليل هذه الأخبار الأَرْبَعَةُ، وانْعَطَفَتْ بالواوِ الجامِعَةِ لَها، وعَطَفَ الأَخْبارَ بالواوِ، ولا خِلافَ في جَوازِهِ"[1]، وقد جمعت هذه الأخبارُ عذابَ الدُّنيا والآخرةِ، والعذابَ المعنويَّ والماديَّ.

نكتةُ الإخْبارِ باسم الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

لاسـتـحـضـارِ الصُّورةِ البَشِعةِ التي كان عليها الـكـاتِـمـون وتمييزِهم عمَّن سِواهُم

عُبِّر باسم الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لبيانِ أنَّ "سببَ الحُكم هُو هَذِه الصّفَة"[2]، فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هو "إشارَةٌ إلى الموْصولِ باعْتبارِ اتِّصافِهِ بما في حَيِّزِ الصِّلَة من الوصْفيْنِ الشَّنيعَيْنِ المُمَيِّزَيْنِ لَهُم عَمَّن عداهُمْ أَكْمَل تَمييزٍ، الجاعِلَين إيّاهم بِحَيثُ كأنَّهم حُضّارٌ مُشاهَدُون على ما هُم عليْه، وما فِيه من مَعْنَى البُعْدِ؛ لِلْإيذان بغايَةِ بُعْدِ منْزِلتِهِمْ في الشَّرِّ والفَسادِ"[3]، وقد "جِيءَ باسْمِ الإشارَةِ لإشْهارِهِمْ، لِئَلّا يَخْفَى أَمْرُهُمْ عَلَى النّاسِ، ولِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ ما يُخْبَرُ بِهِ عَنِ اسْمِ الإشارَةِ، اسْتَحَقُّوهُ بِسَبَبِ ما ذُكِرَ قَبْلَ اسْمِ الإشارَةِ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/122-123.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/513.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/191.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/123.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بالأكْلِ في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

الأكـلُ يُغيِّبُ الطَّعامَ كحالِ الرِّشوةِ لا تظهرُ للعيانِ

عبَّرتِ الآيةُ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ والمرادُ الانتفاعُ؛ "لأنَّهُ أَعْظَمُ مَنافِعِ ما تُصْرَفُ فيهِ الأَمْوالُ"(1)، وهو "مُسْتَعارٌ لِلانْتِفاعِ مَعَ الإخْفاءِ، لِأَنَّ الأَكْلَ انْتِفاعٌ بِالطَّعامِ وتَغْيِيبٌ لَهُ، فَهُوَ خَفِيٌّ لا يَظْهَرُ كَحالِ الرِّشْوَةِ، ولَمّا لَمْ يَكُنْ لِآكِلِ الرِّشْوَةِ عَلى كِتْمانِ الأَحْكامِ أَكْلُ نارٍ، تَعَيَّنَ أَنَّ في الكَلامِ مَجازًا، فَقِيلَ: هُوَ مَجازٌ عَقْلِيٌّ، في تَعَلُّقِ الأَكْلِ بِالنّارِ، ولَيْسَتْ هِيَ لَهُ وإنَّما لَهُ سَبَبُها؛ أَعْنِي الرِّشْوَةَ"(2).

فائدةُ ذكرِ قولِه: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ بعد ذكرِ الأكلِ:

اتِّساعُ أقوالِ المفسِّرين دليلُ اتِّساعِ النَّظمِ وبراعةِ احتمالاتِه

من المعلومِ أنَّ الأَكْلَ لا يكونُ إلّا في البَطْنِ، لكنَّ الحقَّ سبحانه ذَكَرَ ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾، على سَبيلِ التَّوْكِيدِ، فَصارَ نَظِيرَ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38](3)، و"تَنْبِيهًا على شَرهِهِم، وتَقْبِيحًا لِتَضْيِيعِ أَعْظَمِ النِّعَمِ لِأَجْلِ المَطْعُومِ الَّذي هُوَ أحسَنُ مُتَناوَلٍ"(4)، "ودَلالَةً على حَقِيقَةِ الأَكْلِ"(5)، يَعني حَقِيقَتَهُ في الآخِرَةِ، فقوله: "﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾: مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وفائدتُه تَأْكِيدُ الأكلِ وتَقْرِيرُهُ بِبَيانِ مَقَرِّ المَأكولِ"(6)، "وزِيادَةُ تَشنيعٍ عَليهِمْ، وتَصْويرِهِم بِمَنْ يَتَناوَلُ رَضْفَ جَهَنَّمَ، وذَلِكَ أَفْظَعُ سَماعًا، وأَشَدُّ إيجاعًا"(7).

"أَوْ كِنايَةٌ عَنْ مَلْءِ البَطْنِ، لِأَنَّهُ يُقالُ: فُلانٌ أَكَلَ في بَطْنِه، وفُلانٌ أَكَلَ في بَعْضِ بَطْنِه، أَوْ لِرَفْعِ تَوَهُّمِ المجازِ، إذْ يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ مالَهُ، إذا بَذَّرَهُ وإنْ لَمْ يَأْكُلْهُ"(8)، وقيلَ إنَّهُ يُعاقِبُهُمْ عَلى كِتْمانِهِمْ، بِأَكْلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2، و/123.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(4) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/121.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/241.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/191.
(7) محمد علي جميل، الإبداع البيانّي في القرآن العظيم، ص: 34، وصفوة التّفاسير: 1/103.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.

النّارِ حَقيقَةً، كأَنّما أَخْبَرَ عَن المآلِ بالحالِ، كما قال تَعالى في سُورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾، أَيْ: إنَّ عاقبَتَهُ تَؤُولُ إلى ذَلِكَ، ومِنْهُ قَوْلُ سابِقٍ البَرْبَرِيِّ:

فَلِلْمَوْتِ تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا *** كَمَا لِخَرَابِ الدُّورِ تُبْنَى المسَاكِنُ

وكذلكَ قَولُ عبدِاللّه بنِ الزِّبَعْرَى، في مِثْلِ ذَلِكَ:

فَإِنْ يَكُنِ المَوْتُ أَفْنَاهُمُ *** فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَهْ[1]

"قال بَعْضُهُمْ: ذِكْرُ البَطْنِ هاهُنا زِيادَةُ بَيانٍ؛ لِأَنَّهُ يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ المالَ، إذا بَذَّرَهُ وأَفْسَدَهُ، وقال آخَرُونَ: بَلْ فِيهِ فائِدَةٌ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ أَيْ: مِلْءَ بُطُونِهِمْ، يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ في بَطْنِهِ، وأَكَلَ في بَعْضِ بَطْنِهِ"[2]، "والأَكْلُ: المَضْغُ، فهُوَ في الفَمِ لا في البَطْنِ، لَكِنْ روعِيَ السَّبَبُ"[3]، "وَفي ذِكْرِ البَطْنِ تَنْبِيهٌ على مَذْهَبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ باعُوا آخِرَتَهُمْ بِحَظِّهِمْ مِنَ المَطْعَمِ الّذي لا خَطَرَ لَهُ، وعلى هُجْنَتِهِمْ بِطاعَةِ بُطُونِهِمْ"[4].

نكتةُ ذكرِ النّار في قولِه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

المَجازُ المُرسَلُ في أَكْلِ النّارِ، عَلاقَتُهُ السَّبَبِيّةُ، بِجَعْلِ ما هُوَ سَبَبٌ لِلنّارِ نارًا

وَجَعَلَ المَأْكُولَ النّارَ في قولِه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، "تَسْمِيَةً لَهُ بِما يَؤُولُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ سَبَبُ النّارِ، وذَلِكَ كَما يَقُولُونَ: أَكَلَ فُلانٌ الدَّمَ، يُرِيدُونَ الدِّيَةَ، لِأَنَّها بَدَلٌ مِنَ الدَّمِ، قال الشّاعِرُ:

أَكَلْتُ دَماً إِنْ لَمْ أَرُعْكَ بِضَرَّةٍ *** بَعِيدَةِ مَهْوَى الْقُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

وَمَعْنَى التَّلَبُّسِ مَوْجُودٌ في جَمِيعِ ذَلِكَ، وتَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِما يَؤُولُ إِلَيْهِ كَثِيرٌ"[5]، فهُوَ مِن المَجازِ المُرسَلِ في أَكْلِ النّارِ، "والعَلاقَةُ هِيَ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/399.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/510.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/241.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.

السَّبَبِيَّةُ، فقَد جَعَلَ ما هُوَ سَبَبٌ لِلنّارِ نارًا"[1]، فـ "سُمِّيَ مَأكُولُهُمْ نَارًا؛ لِأَنَّهُ يَؤولُ بِهِمْ إلى النّارِ"[2]، وهُوَ مِنْ بَديعِ المَجازِ"[3].

فقولُه: "﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، أمّا في الآخِرَةِ فظاهِرٌ، لأنَّهُم لا يَأكُلونَ يَومَ القِيامَةِ إلّا عَيْنَ النّارِ، عُقوبَةً لَهُم عَلى أَكْلِهِمُ الرِّشْوَةَ في الدّنيا، وأمّا في الدّنيا فبِأَكْلِ سَبَبِها، فإنَّ أَكْلَهُمْ ما أخَذوهُ مِنْ أَتْباعِهِمْ، سَبَبٌ مُؤَدٍّ إلى أَنْ يُعاقَبوا بِالنّارِ، فإطْلاقُ النّارِ عَليهِ مِن قَبيلِ إطْلاقِ اسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ"[4]، "لأنّها - أي النّارُ - مآلُهُ، أيْ مَآلُ ما يَأخُذونَهُ، أيْ عاقِبَتُهُ وغايَتُهُ"[5].

"قِيلَ: إنَّ أَكْلَهُمْ في الدُّنْيا - وَإنْ كان طَيِّبًا في الحال - فَعاقِبَتُهُ النّارُ، فَوُصِفَ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النِّساء: 10]؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمّا أَكَلَ ما يُوجِبُ النّارَ، فَكَأَنَّهُ أَكَلَ النّارَ، وقَوْلُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يُوسُفَ: 36] أيْ عِنَبًا، فسَمّاهُ بِاسمِ ما يَؤولُ إلَيْهِ، وقِيلَ: إنَّهُمْ في الآخِرَةِ يَأْكُلُونَ النّارَ، لِأَكْلِهِمْ في الدُّنيا الحَرامَ"[6].

الاِسْتِعارَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لأنّهُمْ أَكلوا ما يَتَلَبّسُ بِالنّارِ، وهُو الرُّشى؛ لِكَوْنِها عُقوبَةً لها، فتَكونُ في الآيَةِ اسْتِعارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ، بِأنْ شَبَّهَ الهَيْئَةَ الحاصِلَةَ مِنْ أَكْلِهِمْ ما يَتَلَبَّسُ بِالنّارِ بِالهَيْئَةِ المُنْتَزَعَةِ مِنْ أَكْلِهِمُ النّارَ، مِنْ حَيْثُ ما يَتَرَتَّبُ على أَكْلِ كُلٍّ مِنْهما مِنْ تَقَطُّعِ الأمْعاءِ، والألَمِ، وما يَتَرَتَّبُ عَلى الآخَرِ، فاسْتُعْمِلَ لَفْظُ المُشَبَّهِ بِهِ في المُشَبَّهِ"[7].

توجيه مَن حَمَلَ قولَه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ على الحقيقةِ:

ومن المفسِّرين من حملَ قولَه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ "على ظاهِرِه، وقالَ: إنَّ ذَلِكَ يكون في الدُّنْيا، وإنّ الرُّشَى الَّتِي هُمْ يَأْكُلُونَها تَصِيرُ في أَجْوافِهِمْ نارًا، فَلا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/247.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/241.
(3) محمد علي جميل، الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص: 34.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(5) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(7) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/347.

يُحِسُّونَ بِها إلّا بَعْدَ المَوْتِ، ومَنَعَ تعالى أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّها نارٌ، اسْتِدْراجًا وإمْلاءً لَهُمْ، ويكون في هَذا المعْنَى بَعْضُ تَجَوُّزٍ، لِأَنَّهُ حالَةَ الأَكْلِ لَمْ يَكُنْ نارًا، إنَّما بَعْدُ صارَتْ في بُطُونِهِمْ نارًا، وقِيلَ: إنَّ ذَلِكَ يكون في الآخِرَةِ، فَهُوَ حَقِيقَةٌ أَيْضًا، واخْتَلَفُوا فَقِيلَ: جَمِيعُ ما أَكَلُوهُ مِنَ السُّحْتِ والرُّشَى في الدُّنْيا، يُجْعَلُ نارًا في الآخِرَةِ، ثُمَّ يُطْعِمُهُمُ اللَّهُ إيّاهُ في النّارِ، وقِيلَ: يَأْمُرُ الزَّبانِيَةَ أَنْ تُطْعِمَهُمُ النّارَ لِيكون عُقُوبَةُ الأَكْلِ مِنْ جِنْسِهِ، وأَكْثَرُ العُلَماءِ على تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ على مَعْنَى: أَنَّهُمْ يُجازَوْنَ على ما اقْتَرَفُوهُ مِنْ كَتْمِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ، والِاشْتِراءِ بِهِ الثَّمَنَ القَلِيلَ، بِالنّارِ، وأَنَّ ما اكْتَسَبُوهُ بِهَذِهِ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ مَآلُهُ إلى النّارِ"[1].

المقصودُ بنفي تكليمِ الكاتمين يومَ القيامةِ في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

نفي التّكليمِ دليلُ الغضبِ والحرمانِ وانحطاطِ المنزلةِ

ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ "نَفْيُ الكَلامِ مُطْلَقًا، أَعْنِي مُباشَرَتَهُمْ بِالكَلامِ، فَيكون مَا جَاءَ في القُرْآنِ، أَوْ في السُّنَّةِ، مِمَّا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ تعالى يُحَاوِرُهُمْ بِالكَلامِ، مُؤَوَّلًا بِأَنَّهُ يَأْمُرُ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ، نَحْوُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: 108]، ويكون في نَفْيِ كَلامِهِ تعالى إيَّاهُمْ دَلالَةٌ على الغَضَبِ عَلَيْهِمْ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ غَضِبَ على شَخْصٍ، صَرَمَهُ وقَطَعَ كَلامَهُ؛ لِأَنَّ في التَّكَلُّمِ، ولَوْ كان بِشَرٍّ، تَأْنِيسًا مَا والتِفاتًا إلى المكَلَّمِ"[2]، فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ "عِبارَةٌ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ، وتَعْرِيضٌ بِحِرْمانِهِمْ حالَ مُقابِلِيهِمْ في الكَرامَةِ والزُّلْفى مِنَ اللهِ"[3]، وهو تَعْبِيرٌ عَنِ انْحِطاطِ المَنْزِلَةِ: "بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: فُلانٌ لا يُكَلِّمُهُ السُّلْطانُ ولا يَلْتَفِتُ إلَيْهِ، وأنتَ إنّما تُعَبِّرُ عَنِ انْحِطاطِ مَنْزِلَتِهِ لَدَيْهِ"[4].

وقد أَحْسَنَ الرّازي في تَبْيِينِ الوُجوهِ المَذْكورَةِ في الإجابَةِ عَنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/122، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124.
(4) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/241.

ذَلِكَ: "﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فَظَاهِرُهُ: أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ أَصْلًا، لَكِنَّهُ لَمَّا أَوْرَدَهُ مَوْرِدَ الوَعيدِ، فُهِمَ مِنْهُ مَا يَجْرِي مَجْرَى العُقُوبَةِ لَهُمْ، وذَكَرُوا فيهِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ قَدْ دَلَّتِ الدَّلَائِلُ على أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى يُكَلِّمُهُمْ، وذلِكَ قَوْلُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92- 93] وقَوْلُه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: 6] فَعَرَفْنَا أَنَّهُ يَسْأَلُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المكَلَّفينَ، والسُّؤَالُ لا يكون إلّا بِكَلَام، فَقَالُوا: وجَبَ أَنْ يكون المُرَادُ مِنَ الآيَةِ، أَنَّهُ تعالى لا يُكَلِّمُهُمْ بِتَحيّةٍ وسَلَام، وإنّمَا يُكَلِّمُهُمْ بِمَا يَعْظُمُ عِنْدَهُ الغَمُّ والحَسْرَةُ؛ مِنَ المُنَاقَشَةِ والمُسَاءَلَةِ، وبِقَولِهِ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: 108].

الثَّاني: أَنَّهُ تعالى لا يُكَلِّمُهُم، وأمّا قَولُهُ تَعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحِجْر: 92] فَالسُّؤَالُ إنّما يكون مِنَ الملَائِكَةِ بِأَمْرِهِ تعالى، وإنّمَا كان عَدَمُ تَكْليمِهِمْ يَوْمَ القيامَةِ مَذْكُورًا في مَعْرِضِ التَّهْديدِ، لِأَنَّ يَوْمَ القيامَةِ هُوَ اليَوْمُ الّذي يُكَلِّمُ اللّٰهُ تعالى فيهِ كُلَّ الخَلَائِقِ بِلَا واسِطَةٍ، فَيَظْهَرُ عِنْدَ كَلَامِهِ السُّرُورُ في أَوْليائِهِ، وضِدُّهُ في أَعْدَائِهِ، ويَتَمَيَّزُ أَهْلُ الجَنَّةِ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَا جَرَمَ كان ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الوَعيدِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ اسْتِعَارَةٌ عَنِ الغَضَبِ، لِأَنَّ عَادَةَ المَلُوكِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الغَضَبِ يُعْرِضُونَ عَنِ المغْضُوبِ عَلَيْهِ، ولَا يُكَلِّمُونَهُ، كَمَا أَنَّهُمْ عِنْدَ الرِّضَا يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ بِالوَجْهِ والحَديثِ"[1].

نفيُ التَّكليمِ كِنايَةٌ؛ لأنَّه لازِمٌ مِنْ لَوازِمِ الغَضَبِ عُرْفًا

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ نفي التَّكليم هو كنايةُ الغضب، فهو "يَكونُ عَلَيْهِمْ غَضْبانَ، كَما يُقالُ: فُلانٌ لا يُكَلِّمُ فُلانًا، إذا كانَ عليهِ غَضبانَ، لِما ثَبَتَ بِالنُّصوصِ أَنَّهُ تَعالى يَسْأَلُهم، والسُّؤالُ كَلامٌ، فحُمِلَ نَفْيُ الكَلامِ على الغَضَبِ؛ فهُوَ كِنايَةٌ"[2]، أو: "لا يُكَلِّمُهُمُ اللّٰه بِطَريقِ الرَّحْمَةِ، غَضبًا عَلَيْهِمْ، فلَيْسَ المُرادُ بِهِ نَفْيَ الكَلامِ حَقيقَةً، لِئَلّا يَتَعارضَ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: 92]،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(2) الشّربيني، السّراج المنير: 1/114.

ونَحْوِهِ، بَلْ هُو كِنايَةٌ عَنِ الغَضَبِ، لِأَنّ نَفْيَ الكَلامِ لازِمٌ لِلغَضَبِ عُرْفًا"[1].

التَّعْريضُ بنفي التّزكية في: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، ضَربٌ مِنَ الكِنايَةِ:

تَنَوُّعُ وُجُوهِ الدَّلالَةِ، في تَأْويلِ قَولِهِ (ولا يزكيهم)

"التَّعْريضُ: في عَدَمِ تَكليمِ اللّهِ إيّاهُمْ، بِحِرْمانِهِم حالَ أَهْلِ الجنّة، وتزكيَتَهُم بكَلامِه تعالى، والتَّعْريضُ ضربٌ مِنَ الكناية، لأنَّ الكنايةَ إذا كانتْ عَرَضيّةً مَسُوقَةً لِأجْلِ مَوْصوفٍ غَيْرِ مَذْكورٍ، كان المُناسِبُ أَنْ يُطْلَقَ عَليها اسْمُ التَّعْريضِ"[2].

"قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ وفيهِ وُجُوهٌ؛ الأَوَّلُ: لا يَنْسُبُهُمْ إلى التَّزْكيةِ ولَا يُثْني عَلَيْهِمْ، الثّاني: لا يَقْبَلُ أَعْمَالَهُمْ كَمَا يَقْبَلُ أَعْمَالَ الأَزْكياءِ، الثّالِثُ: لا يُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَ الأَزْكِيَاءِ"[3]، وقيل: "لا يُثْني عَليْهِم ولا يُطَهِّرُهُم مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، يَوْمَ يُطَهِّرُ المُؤمنينَ مِن ذُنوبِهِم بِالمَغْفِرَةِ"[4].

وقيل: "لا يُصْلِحُ أَعْمالَهُمُ الخَبيثَةَ، فيُطَهِّرَهُمْ، أَوْ لا يُنْزِلُهُم منازِلَ الأَزْكِياءِ.

وقيلَ: لا يُطَهِّرُهُم مِنْ دَنَسِ الذّنوبِ"[5]، " أَيْ لا يُثْني عَلَيْهِمْ في ذَلِكَ المجْمَعِ؛ وذَلِكَ إِشْعَارٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى العَذابِ، لِأَنَّهُ إِذا نُفِيَتِ التَّزْكِيةُ، أَعْقَبَهَا الذَّمُّ والتَّوْبيخُ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ ذَمِّهِمْ في ذَلِكَ الجَمْعِ، إِذْ لَيْسَ يَوْمئِذٍ سكُوتٌ"[6].

السِّرُّ في تَرتيبِ هذِهِ الأخبارِ الأَرْبَعَةِ:

التَّرْتيبُ للمَعْنَى واللَّفْظِ معًا، أَوِ التَّرْتيبُ لِلمَعْنَى فَقَطْ

"وَنَاسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الأَخْبَارِ مَا قَبْلَهَا، ومُنَاسِبٌ عَطْفُ بَعْضِهَا على بَعْضٍ، لِمَا نَذْكُرُهُ فَنَقُولُ: مَتَى ذُكِرَ وصْفٌ ورُتِّبَ عَلَيْهِ أَمْرٌ، فَلِلْعَرَبِ فيهِ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الأُمُورُ المترَتِّبَةُ على الأَوْصَافِ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/247-248.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/205-206.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(5) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/346.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124.

مُقَابَلَةً لَهَا؛ الأَوَّلُ مِنْهَا لِأَوَّلِ تِلْكَ الأَوْصَافِ، والثَّاني لِلثَّاني، فَتَحْصُلُ المقَابَلَةُ مِنْ حَيْثُ المعْنَى ومِنْ حَيْثُ التَّرْتيبُ اللَّفْظيّ؛ حَيْثُ قُوبِلَ الأَوَّلُ بِالأَوَّلِ، والثَّاني بِالثَّاني، وتَارَةً يكون الأَوَّلُ مِنْ تِلْكَ الأُمُورِ مُجَاوِرًا لِمَا يَليهِ مِنْ تِلْكَ الأَوْصَافِ، فَتَحْصُلُ المقَابَلَةُ مِنْ حَيْثُ المعْنَى، لا مِنْ حَيْثُ التَّرْتيبُ اللَّفْظِيُّ، وهَذِهِ الآيَةُ جَاءَتْ مِنْ هَذا القَبيلِ.

لَمَّا ذَكَرَ تعالى اشْتِرَاءَهُمُ الثَّمَنَ القَليلَ، وكان ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ مَطَاعِمِهِمُ الخَسيسَةِ الفَانِيَةِ، بَدَأَ أَوَّلًا في الخَبَرِ، بِقَوْلِهِ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، ثُمَّ قَابَلَ تعالى كِتْمَانَهُمُ الدّينَ، والكِتْمَانُ هُوَ أَنْ لا يَتَكَلَّمُوا بِهِ بَلْ يُخْفُوهُ، بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فَجُوزُوا على مَنْعِ التَّكَلُّمِ بِالدّينِ أَنْ مُنِعُوا تَكْليمَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وابْتَنَى على كِتْمَانِهِمُ الدّينَ، واشْتِرَائِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ثَمَنًا قَليلًا، أَنَّهُمْ شُهُودُ زُورٍ وأَحْبَارُ سُوءٍ، حَيْثُ غَيَّرُوا نَعْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وادَّعَوْا أَنَّ النَّبِيَّ المبْتَعَثَ هُوَ غَيْرُ هَذا، فَقُوبِلَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ أَخيرًا مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ العَذابِ الأَليمِ"[1]، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

توجيهُ المُتَشابِهِ اللّفْظِيّ:

لسائلٍ أن يسألَ عَن سرّ الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: 174]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: 77].

"الجواب أن يقال: الوعيد في كلِّ مكان من المكانين حسب ما ذكر من عظيم الذنب وكبير الجرم، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فوصفهم بأنهم خالفوا الله في أمره ونقضوا ما قدم إليهم من عهده، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187] فهؤلاء لم يبيِّنوا وكتموا فخالفوا بارتكاب ما نهى الله عن ارتكابه وترك ما أمر الله بإتيانه ثم قال: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: نصيبًا يسيرًا من الدنيا، فجاء على هذا أغلظ الوعيد، وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: هذا الحظ اليسير الذي نالوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.

من الدنيا من مطعمٍ ومشربٍ إنّما هو نار في أجوافهم، ثم قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: ليسوا ممن ترجى نجاتهم فيجيئهم مِن قِبَلِ الله كلامٌ أو سلامٌ كما قال في أوليائه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزاب: 44] ثم قال: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهِّرهم من ذنب الكفر بالعفو عنهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾، ثم قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 175]، فكرَّر ذِكْرَ سوء اشترائهم ووعيدهم، وأنهم باعوا الإسلام بالكفر، واشتروا عذاب الله بالغفران، واقتحموا عذاب النار؛ فِعْلَ من يعجب من صبره عليها، فهذه أنواع كثيرة من التّوعُّد اقترنت بما حصل من الذَّنب العظيم في كتمانه، والإعراض عن تبيين ما وجب بيانه.

الآية التي في سورة آل عمران لم يذكر في أوّلها مِن الذُّنوب التي ارتكبوها مثل ما ذكر في أول هذه الآية قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، فكان هاهنا ذِكر بعض ما ذُكر في الآية الأولى وهو: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقرن به من الوعيد أقلَّ ممَّا قرنه بالآية الأولى، وهو أن قال: ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77] أي: لا نصيب لهم من الخير، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كما يكلِّم أولياءه ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ نظرة رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾"[1].

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 1/324-327.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»